الفصل الرابع

دعوة سيدنا عيسى عليه السلام

• في دعوة سيدنا عيسى عليه السلام

لقد بعث الله سيدنا عيسى رابع أولى العزم من الرسل إلى بني إسرائيل خاصة لمهمات آتية :

المهمة الأولى : توبيخ فقهاء بني إسرائيل ، وإنذارهم بغضب الله من أجل نبذهم الدين ، وتحريفهم التوراة ، واهتمامهم بالدنيا ، وتلويثهم الدين بأهوائهم ، حتى انسلخت الديانة من الروحية والفضائل ، وتلوثت بالمادية والشهوات والرذائل .

المهمة الثانية : إنذار بني إسرائيل بأن الله ينزع عنهم النبوة والدولة ليعطيهما غيرهم ، جزاء كفرهم ونبذهم تعاليم التوراة الروحية .

المهمة الثالثة : التبشير بمجيء النبي محمد ﷺ بالشريعة السماوية ، التي كان يعبر عنها لهم بملكوت السماء .

المهمة الرابعة : الإنكار على من سمى عيسى إلها أو ابن الله ، لأنه ولد من غير أب .

ولقد برهن لهم عيسى عليه السلام أن ولادته من غير أب ، وشفائه المرضى بغير دواء ، إنما كانت من أجل القضاء على المادية الطاغية ، ومن أجل صرف قلوب الناس إلى الروحية .

ويمكن استنباط هذه المهمات الأربع من القرآن في الآيات الآتية :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى

ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران:٤٥-٥١) .

● تبليغ عيسى للمهمة الأولى

لقد جاء في إنجيل متى (الإصحاح الثالث والعشرين) : أن المسيح وعظ الصدوقيين الكتبة والفريسيين والكهنة ، ووبخهم على ما كانوا عليه من الهوى واتباع الشيطان :

«ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة ، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ، هكذا أنتم من خارج ، تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء ، وتزينون مدافن للصدوقيين وتقولون : لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء ، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء» .

وجاء في إنجيل برنابا (في الفصل التاسع والستين) :

«أيها الفقهاء والكتبة والفريسيون ، وأنتم أيها الكهنة : قولوا لي إنكم لراغبون في الخيل كالفوارس ، ولكنكم لا ترغبون في المسير إلى الحرب ، إنكم لراغبون في الألبسة الجميلة كالنساء ، ولكنكم لا ترغبون في الغزل وتربية الأطفال ، إنكم لراغبون في إثمار الحقل ، ولكنكم لا ترغبون في حراثة الأرض .

إنكم لراغبون في أسماك البحر ، ولكنكم لا ترغبون في صيدها . .

إنكم لراغبون في المجد ، كالجمهوريين ، ولكنكم لا ترغبون في عبء الجمهورية . . .

إنكم لراغبون في الأعشار والباكورات كالكهنة ، ولكنكم لا ترغبون في خدمة الله الحق ، إذن ما يفعل الله بكم وأنتم راغبون هنا في كل خير بدون أدنى شر ، الحق أقول لكم : إن الله ليعطيكم مكانًا يكون لكم فيه كل شيء ، دون أدنى خير» .

• تبليغ عيسى المهمة الثانية لأمته

لقد جاء في إنجيل متى (الإصحاح الحادي والعشرين ، الآية الثانية والأربعين) : قال لهم يسوع : «أما قرأتم في الكتب : الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قِبَلِ الرب ، كان هذا هو عجيب في أعيننا ، لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ، ويُعطي لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه».

وهذا الحجر هو فرع إسماعيل ، الذي رفضه الإسرائيليون ، فنزع الله منهم ملكهم ، فأعطاه لفرع إسماعيل .

• تبليغ المهمة الثالثة لقومه

جاء في إنجيل يوحنا (الإصحاح السادس عشر ، الآية الثانية) :

«إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، أما متى جاء ذاك «روح الحق» فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه

لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية : ذاك يمجدني ، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» .

وجاء في إنجيل برنابا (في الفصل الثاني والسبعين) :

«أجاب يسوع أنه لا يأتي في زمنكم ، بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنًا ، في ذلك الوقت يرحم الله العالم ، فيرسل رسوله الذي على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله ، وهو سيظهره للعالم ، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ، ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وإني أسر بذلك ، لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ، ويظهر صدقي ، وسينتقم من الذين سيقولون أني أكبر من الإنسان» .

ومصداق ذلك كله في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف:٦) .

وكانت الأناجيل العبرانية تسمى أحمد بـ«الفارقليط» وهو الذي ترجمه النصارى إلى الروح الحق ، أو الروح القدس ، أو المعزى .

وفي إنجيل برنابا التصريح بمحمد ، واستغرب النصارى هذا التصريح باسم محمد في بشارة عيسى ، واستبعدوه وأنكروه ، ولكنهم لم ينكروا التصريح باسم يسوع في البشارة به قبل ولادته ، كما جاء في أناجيلهم .

ولم ينكروا التصريح باسم إسحاق قبل ودلاته للنبي إبراهيم .

وهل يصح أن لا يكون التبشير بنبي الإسلام على الإطلاق ، وقد كانت أسفار العهد القديم والحديث مليئة بالبشارة الصغرى والكبرى .

والإسلام أكبر حادثة عالمية لم يسبق له مثيل في تاريخ الأديان كلها ، وكيف لا يبشر به المسيح ولا موسى ولا غيرهما من الأنبياء الذين مضوا ؟

لا يصح هذا إلا في عقل اليهود والنصارى الذين لا يعترفون بنبوة غير أنبيائهم ولا يسوغ إلا في منطقهم وفلسفتهم .

● **تبليغه المهمة الرابعة لقومه**

إنكاره على الذين جعلوه إلهًا أو ابن الله . .

جاء في إنجيل برنابا (في الفصل الثاني والتسعين) :

إن بعض اليهود لما رأوا الخوارق على يد عيسى سموه إلهًا أو ابن الله ، ولما سمع ذلك غضب غضبًا شديدًا ، ولعن القائل ، وقال برنابا :

«ففي هذا الزمان ذهبنا ويسوع إلى جبل سينا ، عملاً بكلمة الملاك الطاهر ، وحفظ هناك يسوع الأربعين يومًا مع تلاميذه ، فلما انقضت اقترب يسوع من نهر الأردن ليذهب إلى أورشليم ، فرآه أحد الذين يؤمنون بأن يسوع هو الله ، فصرخ من ثَمَّ بأعظم سرور : إن إلهنا آت يا أورشليم ، تهيأي لقبوله ، وشهد أنه رأى يسوع على مقربة الأردن ، فخرج من المدينة كل صغير وكبير ، ليروا يسوع ، حتى أصبحت المدينة خالية ، لأن النساء حملن أطفالهن على أذرعهن ، ونسين أن يأخذن معهن زادًا للأكل ، فلما علم بهذا الحاكم ورئيس الكهنة خرجا راكبين ، وأرسلا رسولاً إلى هيرودس ، فخرج هو أيضًا راكبًا ، ليرى يسوع تسكينًا لفتنة الشعب ، فمكثوا يومين في البرية .

وفي اليوم الثالث وجدوا يسوع يتطهر هو وتلاميذه للصلاة ، حسب كتاب موسى ، فانذهل يسوع حين رأى الجم الغفير الذي غطى الأرض بالقوم .

ولما اقتربوا أخذوا يسجدون له كما يسجدون لله ، فتنفس يسوع الصعداء وقال : «انصرفوا عني أيها المجانين ، لأني أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت» .

لذلك ارتاع الشعب ، وطفقوا يبكون .

حينئذ رفع يسوع يده إيماء للصمت ، وقال :

إنكم قد ضللتم ضلالاً عظيمًا أيها الإسرائيليون ، لأنكم دعوتموني إلهكم وأنا إنسان ، وأنا أخشى لهذا أن ينزل الله بالمدينة المقدسة وباء شديدًا مسلمًا إياها ، لاستعباد الغرباء : لعن الله الشيطان الذي أغراكم بهذا ألف لعنة .

أشهد أمام السماء وأشهد كل شيء على الأرض : أني برىء من كل ما قد قلتم ، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية ، وعرضة لحكم الله ، مكابد شقاء الأكل والمنام ، وشقاء البرد كسائر البشر .

لذلك متى جاء الله ليدين ، يكون كلامي كحسام : يحترق كل من يؤمن بأني أعظم من إنسان» .

هذا الذي جاء في إنجيل برنابا الذي حرمت الكنيسة قراءته ، لتصريحه بالحق ، ومصداق هذا الإنجيل ما جاء في القرآن من قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة:٧٢-٧٥) .

● **منهج سيدنا عيسى في دعوته وما يستفاد منه**

يستفيد الداعية من منهج النبي عيسى ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأول : الطلب من الجماعة نصرة الداعي ، والتعاون معهم على تبليغ الدعوة ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٥٢) .

وقد استعمل سيدنا محمد هذا الأسلوب كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ

أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾

(الصف:١٤) .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤) .

وفي السيرة أن رسول الله ﷺ خرج إلى الطائف يطلب من ينصره حتى يبلغ رسالة ربه ، وكان يخرج في موسم الحج بمنى ، يتتبع القبائل ليطلب منهم أن ينصروه لتبليغ رسالة الله ، حتى وفقه الله لبني الأوس والخزرج من أهل يثرب .

الأسلوب الثاني : إغاثة الملهوف ، وإعانة المنكوب ، ومعالجة المرضى لتأييد الدعوة ، لذلك كان سيدنا عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله لتأييد رسالته ، كما سبق أن سيدنا موسى دعا الله أن يكشف البلاء عن قوم فرعون رجاء إيمانهم .

وجاء الإسلام يأمر بإعطاء المؤلفة قلوبهم من الزكاة ، ثم أمر بسائر أنواع البر لسائر البشر وقال :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة:١٧٧) .

الأسلوب الثالث : ضرب الأمثال العالية ، ومخاطبة الجمهور بالحكم البالغة وهي كثيرة في الأناجيل الأربعة وفي إنجيل برنابا ، وفي أعمال الرسل وغيرها من أسفار العهد الجديد .

• جواز الاقتباس من مواعظ سيدنا عيسى وحكمه

الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها ، لأنه أولى بها من غيره .

والدعوة إلى الله يجب أن تكونَ بالحكمة والموعظة الحسنة ، لذلك لا يرى المتقدمون بأسًا في الاقتباس من مواعظ سيدنا عيسى للإرشاد والدعوة إلى الله ، ولم يروا بأسًا في الاقتباس من التوراة والإنجيل مباشرة ، أو من علماء اليهود والنصارى الذين أسلموا .

وفي المكتبات الإسلامية أكداس ضخمة من كتب الصوفية ، فيها أقوال وحكايات يرويها الزهاد والنساك عن سيدنا عيسى ، مجردًا عن السند ، كما في الإحياء للإمام الغزالي مثلاً ، ولا أظن أن أحدًا يعرف إسنادها ، ولكني أفترض لها ثلاثة احتمالات :

الاحتمال الأول : أن تكون هذه الأقوال روايات شفوية نقلها رهبان نصارى عن النبي عيسى ، وتوارثوها ، ثم نقلها منهم الصوفية المتنسكون .

الاحتمال الثاني : أن تكون من آثار الأناجيل الدارسة بقيت في صدور الصالحين من أتباع سيدنا عيسى ، فتناقلها منهم الناس[1] .

الاحتمال الثالث : أن تكون مصنوعة على لسان عيسى ، مرفوعة إليه ، لأنها شبيهة بمواعظه وحكمه الغالية ، ونقلها الصوفية لأنها نافعة ، وربما كان هذا سببًا لما يقول بعض النصارى : إن بيد المسلمين أناجيل منسوبة إلى عيسى ، لا يعرفها النصارى .

أما ما ينسب إلى عبد الله بن سلام ، ووهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى الذين أسلموا ، فقد رواه عنهم السلف ، كما روى الأحاديث النبوية .

---

(١) مثال ذلك كتاب « التحفة المرضية في الأخبار القدسية » للشيخ عبد المجيد العدوي ، فيها مجموعة مما سماها صحف موسى ، وهي تبلغ أربعين صحيفة ، بها مواعظ كالأحاديث القدسية ، ومثلها ما يسمونه : « زبور داود » .

فإذا صح السند والمتن ، فلا بأس بروايتها والعمل بها ، وإلا فيجب التحفظ حتى لا يقع الراوي في الإسرائيليات التي أضرت بالفكر الإسلامي في العقيدة والعبادة .

● الحواريون ودعوة سيدنا عيسى

لا يمكن للباحث عن دعوة سيدنا عيسى أن يهمل شأن الحواريين ، ولقد ورد في القرآن والأناجيل الحاضرة ذكرهم وأخبارهم : أنهم حملة دعوة عيسى بعده ، ولقد نوه القرآن بذكرهم أربع مرات ، وأنهم آمنوا بعيسى واتبعوه ونصروه .

قال تعالى فى سورة آل عمران في المرة الأولى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران:٥٢،٥٣) .

وقال في المرة الثانية في سورة المائدة : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة:١١١) .

وفي المرة الثالثة في المائدة أيضًا : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة:١١٢،١١٣) .

وقال في المرة الرابعة في سورة الصف : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ (الصف:١٤) .

لم يصرح القرآن ولا الحديث النبوي بذكر عدد الحواريين ، ولم يتعرض لذكر أسمائهم ، والمرجع الوحيد في معرفة أسمائهم هو الأناجيل الموجودة بيد النصارى .

ويذهب (الإمام الظاهري) أبو محمد بن حزم الأندلسي في كتابه «الفصل في الملل والنحل» إلى أن أتباع عيسى الذين ذكروا في الأناجيل الحاضرة ، ليسوا الحواريين الذين ذكرهم القرآن ، بل هم كافرون وكذابون وغالون في المسيح ، أما الذين ذكرهم القرآن فلا نعرف أسمائهم ؟

«قلت» : كيف ينفى أبو محمد ما أثبته غيره ؟ والمثبت مقدم على النافي . والقرآن يقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) .

ولو أن أبا محمد قال : إن هذه الأناجيل الحاضرة ليست بالإنجيل المنزل على عيسى ، بل هي مجموعة أحاديث ، فيها الصحيحة وفيها المكذوبة على عيسى ، لكان أقرب إلى الصواب ، حيث إن النصارى ، أنفسهم قد اعترفوا بوجود أناجيل أخرى حرمت الكنيسة قراءتها ، ومنها إنجيل برنابا .

ثم إنه لو قال : إن في الأناجيل الحاضرة ما نسب إلى عيسى وإلى الحواريين كذبًا وبهتانًا لكان أقرب إلى الحقيقة التاريخية .

أما الحواريون المعروفون بأسمائهم عند النصارى من زمن عيسى إلى يومنا هذا ، فليس لأحد سبيل إلى إنكارهم واستبدالهم بغيرهم .

أما وجود الدخلاء فيهم كـ«بولس» ، فإن القرائن التاريخية تشهد لذلك تمامًا ، ولا يزال في الأناجيل الحاضرة بعض الحقائق الخاصة بالمسيح ، وبدعوته وبشارته بظهور النبي محمد ﷺ .

وإبطال أسماء الحواريين ، وإنكارهم مطلقًا يضر بحقائق الإسلام أكثر مما ينفعها فإن الدعاة يحتجون على اليهود والنصارى بما صح عندهم من كتبهم .

وأصح الأناجيل كلها وأقربها إلى القرآن هو إنجيل برنابا ، اعتمده المسلمون ، ورفضه النصارى لما فيه من البشارة بالنبي ﷺ وتكذيب النصارى في دعواهم المسيح ابن الله .

وقد ذكر أسماء الحواريين المعروفين ، ولم يختلف فيها مع الأناجيل الأخرى إلا في اسمين فقط ، وإذا رفضنا تلك الأسماء رفضنا معها إنجيل برنابا الذي هو أصح الأناجيل .

وقد ورد اسم برنابا في سفر الأعمال أنه من أوائل تلاميذ المسيح ، ولم يذكروه في الحواريين ، وقد ذكروا أنه هو الذي تعلم على يده بولس الذي صار فيما بعد رئيسًا للحواريين ، فعلى من رفض هذه الأسماء كلها أن يأتي بمثلها أو غيرها ، فيصدقه النصارى وغيرهم عليها .

● رسل أصحاب القرية من الحواريين

قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ (يس:١٣-٢٩) .

أكثر المفسرين ـ سلفًا وخلفًا ـ على أن هؤلاء المرسلين هم من الحواريين الذين بعثهم عيسى إلى مدينة أنطاكية ، ويؤكد ذلك حديث : « السبق ثلاثة ،

فالسابق إلى موسى : يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى : صاحب يس[1] ، والسابق إلى محمد : علي بن أبي طالب».

وذهب ابن كثير في تاريخه وفي تفسيره إلى أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح كما يدل عليه سياق الآيات[2] .

وأن القول بأن القرية هي أنطاكية ضعيف ، لأن أهل أنطاكية قد آمنوا برسل المسيح فكانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع التي فيها البطاركة وهي : القدس ، وأنطاكية ، وإسكندرية ، ورومية .

ثم قال : إن قصة أنطاكية مع الحواريين ـ بعد نزول التوراة ـ وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغيره أن الله لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب بعد نزول التوراة ، وأورد كلام المفسرين أن جبريل أخذ بعضادتي الباب الذي للبلد ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون .

« قلت » : وعندي أنه لا يمتنع أن يكون هؤلاء الرسل رسلاً من عند الله ، ورسلاً من عند عيسى ، بأن يكون عيسى اختارهم بوحي من الله : على مثال ما سبق لسيدنا موسى في طلب هارون ليكون وزيرًا له ، ثم صار نبيًّا ورسولاً معه ، ويؤيد ذلك ما جاء في البخاري أن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، وكلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي »[3] .

لذلك جاز أن يكونوا أنبياء خلفوا عيسى عليه السلام ، ليسوسوا بني إسرائيل من بعده .

---

(١) صاحب يس هو الذي قال تعالى فيه : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس:٢٠) والمرسلون هم رسل عيسى ، والحديث رواه الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ .

(٣) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

والحديث الصحيح الذي يعارض كونهم أنبياء ورسلا هو الحديث : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

وفي رواية زيادة «فليس بيننا نبي» وفي رواية أخرى «ليس بيني وبينه نبي» وفي رواية أخرى ليس فيها هذه الزيادة[1] .

وعلى العمل بهذه الزيادة ، يحمل على أن النبوة المنفية بين عيسى ونبينا محمد ﷺ النبوة التي تكون من طبقة أولى العزم من الرسل المشرعين كما يؤخذ من ترتيب الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ (الأحزاب:٧) .

فالترتيب هنا على حسب أولي العزم ، مع وجود عدة أنبياء بينهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣) .

ألا ترى الترتيب والتنسيق بين أولي العزم من الرسل ، مع وجود كثير من الأنبياء والمرسلين غير مشرعين ، وفي حديث الشفاعة : أن الناس يأتون نوحًا يوم القيامة ويقولون له «أنت أول الرسل» مع أنه قد سبقه آدم وشيث ، وإدريس ، وهم من الرسل على الأرجح .

وعلى هذا الأساس لم يكن بين عيسى وبين سيدنا محمد نبي مثله من أولي العزم ، ومن أصحاب شريعة ، ولا شيء يمنع وجود أنبياء غير مشرعين بعد عيسى قبل أن يختم الله النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ الذي وصفه الله بأنه : خاتم النبيين .

وشهد النبي ﷺ بذلك في قوله : «أنا العاقب فلا نبي بعدي»[2] .

---

(١) والحديث متفق على صحته ، ورواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة .

(٢) هذه رواية الموطأ .

أما كون القرية المذكورة مدينة أنطاكية ، فإن حديث أبي سعيد الخدري لا يكفي دليلاً لرد القول بأنها أنطاكية ، فإن خمود القوم الكافرين بالصيحة ممكن دون خراب القرية بأسرها ، أو هلاك أهل القرية بأسرهم ، وقد أغرق الله فرعون وقومه في اليم دون مصر بأسرها ، وخسف بقارون وبداره الأرض دون من معه من الذين يريدون الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٠) .

وليس في الآية ولا في الحديث دليل على أن القرية كلها أُهْلِكت ، وإنما في الآية دليل على أن القوم الذين قتلوا صاحب يس فقط ماتوا بالصيحة ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ (يس:٢٩) .

ثم إن هلاك جميع أهل القرية من أجل قوم منهم قتلوا رجلاً واحدًا ليس بنبي ولا رسول لم يعهد مثله في سنة الله في الذين خلوا . ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٠) .

● بدء إطلاق المسيحية على أتباع عيسى

اختار الحواريون بعد رفع عيسى أربع مدائن لتكون مراكز دعوتهم،اختاروا: القدس ، لأنها مدينة المسيح .

واختاروا أنطاكية ، لأنها أول مدينة آمنت بالمسيح .

واختاروا رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم .

واختاروا الإسكندرية ، لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة .

وكان اليهود يطلقون على عيسى المسيح ناصريًا ، نسبة إلى الناصرة (بلدة في شمال الجليل إحدى بلاد فلسطين) كانت بلدة مريم أم عيسى ، وفيها ظهر عيسى أولاً ، وأطلقوا النصارى على أتباع عيسى الناصري .

جاء في إنجيل متى (الإصحاح الثاني الآية الثانية والعشرين) : «وإذ أوحى إليه في حلم : انصرف إلى نواحي الجليل ، وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة ، لكي يتم ما قيل بالأنبياء أنه يدعى ناصريًا» .

وظل عيسى يدعى ناصريًا ، وظل أتباعه يدعون نصارى طوال أيامه وبعد رفعه بزمن قليل .

ثم اتفق برنابا وبولس على اختيار الانتساب إلى المسيح نفسه ، بدلاً من الانتساب إلى مدينته ، ومنذئذ تسموا بالمسيحيين ، كما في سفر الأعمال : «ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول ، ولما وجده جاء به إلى أنطاكية فحدث أنهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة ، وعلما جمعا غفيراً ، ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً»[1] .

ويظهر من نصوص الأناجيل ، وسفر الأعمال أن أتباع عيسى كانوا يقسمون إلى ثلاث طبقات : رسل ، وتلاميذ ، ومسيحيين .

أما الرسل فهم الاثنا عشر رسولاً : اختارهم المسيح بنفسه من التلاميذ ، ولما مات يهوذا استبدلوه برجل آخر اسمه : متياس ، وهو من التلاميذ كما في إنجيل لوقا (الإصحاح السادس والعاشر) .

وأما التلاميذ فهم مائة وعشرون ، كما في سفر الأعمال ، الإصحاح الأول .

وأما المسيحيون فهم الذين آمنوا بالرسل والتلاميذ بعد المسيح .

- **إنجيل عيسى والأناجيل الحاضرة :**

لا يعتقد أكثر النصارى أن هناك إنجيلاً مكتوبًا بيد النبي عيسى ، أو مدونًا في عهده ، بل غاية ما يعتقدونه أنه كان يقرأ التوراة وسائر كتب الأنبياء ، ويفسرها بتفسيرات غريبة ، مليئة بالمواعظ والحكم والأمثال النادرة ، وأن الكتبة ، والكهنة ، والصدوقيين ، والفريسيين ، كانوا يوجهون إليه المسائل العويصة فيحلها لهم بأسلوب الحكمة ، في أجوبة مسكتة .

---

(١) سفر الأعمال : إصحاح ١١ .

ومن الغريب أن يعتقد النصارى بوجود كتب للأنبياء قبل عيسى ، ثم وجود أناجيل لتلاميذ عيسى ، ولا يعتقدون بوجود كتاب لعيسى يهتدي به أتباعه ، وهو عندهم فوق جميع الأنبياء .

إن الإسلام يقرر أن للنبي عيسى إنجيلاً منزَّلاً عليه ، وشهد شاهد من علماء النصارى أن هناك إنجيلاً أصليًا لهذه الأناجيل الحاضرة ، وإنما فقدوه أيام الاضطهاد الأول للمسيحية .

وإلى ذلك الإنجيل يشير المسيح حين يقول في آخر الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس «وقال لهم : اذهبوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» .

أما الأناجيل الحاضرة فهي تراجم لحياة المسيح ، كتبها الحواريون من تلاميذ عيسى بعد رفعه بمدة ، وفي أوقات مختلفة ولغات متباينة ، ضمنوها مقتطفات من المواعظ والحكم والأمثال .

ولا يصح نسبة هذه الأناجيل إلى عيسى باعتبار أنه يعرفها ، أو يعرف شيئا عن كتابتها .

وإنما هي بشارات كتبها تلاميذ عيسى فيها نزر يسير من أخباره وسيرة حياته ، وهذه الأناجيل على هذا الوجه ليست على مستوى القرآن الكريم الذي كُتِبَ في زمن النبي ﷺ على الوضع الموجود حاليًا والذي يقرؤه الناس الآن ، وليست أيضًا في مستوى كتب الأحاديث النبوية ، كالموطأ ، والبخاري ، ومسلم ، وغيرها من كتب الحديث والسيرة النبوية[1] .

● كتب الأناجيل الحاضرة

لم يعرف على وجه الحقيقة متى كتب الإنجيل الأول ، وإنما قالوا : إن تاريخ كتابته يتراوح ما بين ٣٩-٤١م بعد رفع المسيح ، وإن الذي كتبه هو متَّى

---

(١) فإن كتب الأحاديث والسيرة النبوية مأخوذة بالسند ، وأما هذه الأناجيل فلا سند لها .

العشار (أحد الحواريين) كتبه باللغة العبرية . ثم كتب مرقس إنجيله باللغة اليونانية ، ويتراوح تاريخ كتابته ما بين ٥٦ - ٦٠م ومرقس أحد السبعين ، صاحب برنابا وبولس في رحلتهما الثانية إلى أنطاكية ، تمركز للتبشير في مصر إلى أن قتله فيها الوثنيون الرومانيون (عام ٦٢م) .

وكتب لوقا إنجيله باليونانية حوالي ٥٣ - ٦٤م وهو طبيب روماني ، وليس من تلاميذ المسيح ، بل من تلاميذ بولس ، وعلى هذا يكون كتابع التابعي في النظام الإسلامي .

وكتب يوحنا الصياد إنجيله حوالي ٦٨ - ٩٨م وهو من الحواريين ، تقدم في العمر حتى عجز عن التبشير بالمواعظ الكثيرة وصار يكرر حكمة : « ليحب بعضم بعضًا » .

وهو الحواري الوحيد الذي مات حتف أنفه ، ولم يمت شهيدًا .

● كتاب أعمال الرسل وإنجيل برنابا

كتب لوقا رسالة في أخبار الحواريين وبدء أعمالهم ، ولولاه لما عرف النصارى اسم برنابا الذي هو أحد الحواريين ، وأحد الرسل الذي كانت له منزلة عالية عند المسيح ، وهو أستاذ بولس ومرقس ـ وهو أول من بشر في أنطاكية مع بولس ، وهو الذي سمى أتباع المسيح بالمسيحيين مع بولس ـ له إنجيل أقرب إلى روح الحق وموافقة القرآن ، إذ قد خالف النصارى في كثير من الأمور ، ولذلك حرمت الكنيسة قراءته مع الأناجيل الأخرى التي جمعتها وحرقتها ، وامتنعت أن تعترف بها بعد أن اعترفت بهذه الأناجيل الأربعة ، وأعمال الرسل ؛ ورسائل بولس التي بلغت أربع عشرة رسالة ، ثم رسائل : بطرس ، ويعقوب ، ويهوذا ، ورؤيا يوحنا ، وسائر ما أطلقوا عليه اسم : العهد الجديد ، مقابل أسفار التوراة التي سموها العهد القديم .

● من هو برنابا

جاء عنه في كتاب الأعمال ص (٣٦) : « ويوسف الذي دعى من الرسل برنابا الذي يترجم ابن الوعظ ، وهو لاوي قبرصي الجنس » اهـ .

وكان هذا الرجل موثوقًا به في الكنيسة ثقة تامة ويندب لوعظ الناس المدعوين للدخول في الدين .

أعمال ص١١ : « (٢٢) فسمع الخبر عنهم في أذان الكنيسة التي في أورشليم فأرسلوا برنابا لكي يجتاز إلى أنطاكية (٢٣) الذي لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب (٢٤) لأنه كان رجلاً صالحًا وممتلئًا من الروح القدس والإيمان فانضم إلى الرب جمع غفير » .

أعمال ص ١١ : « (٢٩) فحتم التلاميذ حسبما تيسر لكل منهم أن يرسل كل واحد شيئًا خدمة إلى الإخوة الساكنين في اليهودية ، (٣٠) ففعلوا ذلك مرسلين إلى المشايخ بيد برنابا وشاول » .

أعمال ص ١٢ : « (٢٥) ورجع برنابا وشاول من أورشليم بعد ما كملا الخدمة وأخذا معهما يوحنا الملقب مرقس » .

أعمال ص ١٣ : « (٢) وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه » .

أعمال ص ٥ : « (١١) لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضًا (١٢) فسكت الجمهور كله وكانوا يسمعون برنابا وبولس يتحدثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب في الأمم بواسطتهم » .

أعمال ص ١٥ : « (١) وانحدر قوم من اليهود وجعلوا يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا ، فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة المعنى رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هـذه المسألة » .

أعمال ص ١٥ : « (٣٥) أما بولس وبرنابا فأقاما في أنطاكية يعلمان ويبشران مع آخرين كثيرين أيضًا بكلمة الرب » .

قلت إن الخصومة التي وقعت بين بولس وبرنابا كانت من جراء التغيير الذي أدخله بولس في أصول النصرانية فخالفه فيه برنابا ومن ذلك ماجاء في أعمال الرسل ص١٥ : «(٣٩) أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون وكونوا معافين» فانضم لذلك إلى جماعة بولس جم غفير فانفرد برنابا بعد قليل فاستطاع بولس أن يستولى على جميع النصارى إما بفصاحته وحيلته حتى تفوق على برنابا الذي شهد له بالإيمان وأدخله في جملة الرسل .

فصار كلامه مقبولاً دون معلمه برنابا الذي منعت الكنيسة أخيرًا الاعتراف بإنجيله لأنه محافظ على الإنجيل الأصلي .

وإلا فاسألوا النصارى : لماذا كان للتلميذين اللذين هما هو بولس ولوقا كتبا ورسائل ولم يكن لأستاذهما الذي هو برنابا أي كتاب معترف به لدى رؤساء الكنائس؟

● المجامع المسيحية

وضع الحواريون نظام الاجتماع للتشاور على شأن من شئون الدعوة إلى الدين ، وعلى إصدار قرارات حاسمة حولها .

غير أنهم لم يضعوا لهذا الاجتماع شروطًا ، بل كانوا يعتقدونه حسبما اتفق ، وقد وضعه الحواريون الأولون بعد اثنتين وعشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام ، وكان ذلك في أورشليم - حسبما جاء في سفر الأعمال الإصحاح الخامس عشر - والله أعلم بصحة ذلك - : «فاجتمع الرسل والمشايخ لينظروا في هذا الأمر ، فبعد ما حصلت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم : «أيها الرجال الإخوة : أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ، ويؤمنون ، والله العارف القلوب ، شهد لهم معطيا لهم الروح القدس ، كما لنا أيضًا» إلى أن قال : «يعقوب من الحواريين ، لذلك أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم بل نرسل إليهم أن يمتنعوا عن

نجاسات الأصنام ، والزنا ، والمخنوق ، والدم ، ورأى الرسل والمشائخ أن يختاروا رجلين منهم : برنابا ، وبولس ، إلى أنطاكية ، وسورية ، وكليكية ، ليخبراهم بنفس الأمر شِفَاهًا : أنه قد رأى الروح القدس والرسل والمشائخ أن لا يضعوا عليهم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة : أن يمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، والمخنوق ، والزنا ، التي إن حفظها الناس كانوا معافين» .

بهذا الاجتماع وضع الحواريون الحجر الأساسي للمجامع الدينية التي توالت بعد ذلك ، وأشهرها :

١- مجمع نيقيا : وهي إحدى مدن الإمبراطورية الرومية الشرقية ، اجتمع فيها الأساقفة للبحث عن قضية التوحيد التي أثارها أسقف الإسكندرية المسمى «آريوس» وهو ينكر أن المسيح إله ، فاجتمع الأساقفة وكفروه وأصدروا قرار وجوب الإيمان بأن المسيح إله ، وذلك عام (٣٢٥) ميلادية .

٢- مجمع القسطنطينية الأول : سنة ٣٨١م ، وفي هذا المجمع قرروا عقيدة التثليث ، وكفروا من ينكرها .

٣- مجمع أفسس : سنة ٤٣١ م ، وفي هذا المجمع قرروا ألوهية مريم أم عيسى ، وكفروا من ينكرها .

وهكذا ظلوا يعقدون المجامع حتى بلغت نحو عشرين مجمعًا إلى آخر عام ١٨٦٩م .

● **مقارنة بين المجامع النصرانية والإجماع في الشريعة الإسلامية**

الإجماع في النصرانية يختلف تمامًا عن الإجماع في الإسلام ، فالإجماع في الإسلام : اتفاق فقهاء الإسلام في الاجتهاد على استنباط حكم شرعي لحادثة جديدة لم تكن من قبل ، ولم يرد لها نص من الكتاب والسنة ، فيجتمع الفقهاء ليبحثوا عن حكمه وليصدروا على تلك الحادثة حكمًا شرعيًّا : وجوبًا أو حرمة ، صحة أو فسادًا ، حلالاً أو حرامًا .

فلا إجماع بعد وجود النص للحكم من كلام الله ورسوله ، ولا إجماع يخالف النص ، وينعقد الإجماع بالأكثرية الساحقة من فقهاء المسلمين .

ولم يكن الإجماع الإسلامي قائمًا على هوى إنسان ـ عالم أو فقيه أو ملك ـ كما يكون ذلك عند النصارى قائمًا على هوى أسقف أو ملك أو راهب ، أو لإمبراطور أو لبابا ، بل يكون على دليل شرعي من الكتاب والسنة[1] .

وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[2] . . و« يد الله مع الجماعة »[3] .

ولقد وضع الخلفاء الراشدون سنة الإجماع في الإسلام ، ووصى النبي ﷺ باتباعهم فيما أجمعوا عليه بقوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »[4] .

أما الإجماع عند النصارى فليس له دليل ولا نص من المسيح ، فإنهم يجمعون على نسخ ما جاء به عيسى ، وإبطال ما جاء به الأنبياء قبل عيسى ، كما سبق في اجتماع المسيحيين الذين أبطلوا شريعة موسى وعيسى

---

(١) وليس للرأي والهوى دخل في إجماع فقهاء المسلمين على شيء إنما هو مأخوذ من الاستنباط من النصوص وقياس الأشباه والنظائر ، سيرًا على ما وضعه رسول الله ﷺ حين أرسل معاذًا بن جبل إلى اليمن . إذ قال له : « كيف تحكم؟ . . قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم تجد ؟ قال : أقيس الأشباه والنظائر ، فضرب على صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ».

(٢) رواه ابن ماجه عن أنس بلفظ : « إن أمتي لن تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافًا فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٣) أخرجه الترمذي عن ابن عباس بلفظ : « يد الله على الجماعة » أي محيطة بالجماعة إحاطة عناية وحفظ ورعاية .

(٤) أخرجه القاضي عياض في الشفا ـ باب وجوب اتباعه ـ قال : « .. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ...إلخ ».

باجتماعهم ، فكان تلاميذ المسيح يبطلون ما كان وحيًا من الله إلى رسله وأنبيائه ، مع أنه جاء في نصائح المسيح ما كتبه متَّى ولوقا من قوله : «ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من السيد ، يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه ، والعبد كسيده» . انظر الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى .

● سرعة انتشار المسيحية وأسبابها

إن المسيحية التي لم يستجب لها أيام المسيح أكثر من مائة وعشرين إنسانًا ، منهم أنصار ، ورسل ، وحواريون ، ومنهم تلاميذ وأتباع . أصبح يدين لها اليوم أكثر من ثمانمائة مليون نسمة من أرقى شعوب الدنيا ، وأغنى دول العالم ، وأكبر أمم الأرض .

هذه المسيحية الغامضة في عقيدتها الثالوثية «الله ثالث ثلاثة واحد» هذه المسيحية التي تفرض على العقل الطاعة العمياء ، وتلجم الأفواه بقاعدتها التي تقول «الدين فوق العقل» .

هذه المسيحية التي تخضع دائمًا للتعديل والتغيير والتبديل في كل طقوسها وتقاليدها الدينية .

هذه المسيحية التي عدلت يوم السبت إلى يوم الأحد إرضاء للإمبراطور الروماني الوثني .

هذه المسيحية التي تحمل معها كثيرًا من آثار الوثنية . ومع هذا وذلك كله ، قد انتشرت المسيحية ، وشد الناس أيديهم بها ، وعضوا عليها بنواجذهم .

حقًّا إن أوربا وأمريكا انسلخت اليوم من العقيدة النصرانية ، إلا في الاسم والصورة والشكل ، ومع ذلك لا يزال رؤساء الحكومات والدول يحترمون رجال الكنيسة ، ويقدسون البابا ، ويلتفون حوله ، ويستمعون لقوله ، فما هي الأسباب في سرعة الانتشار ؟

الجواب : أنه يمكن حصر هذه الأسباب في النقاط الآتية :

أولاً : معجزات النبي عيسى ، والخوارق التي جرت على أيدي الحواريين .

ثانيًا : تضحية المبشرين بأنفسهم ونفائسهم .

ثالثًا : إخضاع الدين لرغبات المدعوين .

رابعًا : إغراء البسطاء بالوسائل المادية والأدبية .

أما معجزات النبي عيسى ﷺ والخوارق الجارية على أيدي الحواريين ، فلقد علمت أن مولد عيسى عليه السلام جاء على سبيل خرق العادة ، وكانت أعماله كلها في حياته على سبيل خرق العادة أيضًا . وشواهد ذلك واضحة في القرآن والأناجيل .

ثم لما اختار عيسى من أتباعه الحواريين ، وسماهم رسلاً ، منحهم شيئًا مما أعطاه الله من الخوارق ـ كما في الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى بعد أسماء الحواريين ـ : «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق الأمم لا تمضوا ، إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت بني إسرائيل الضالة ، وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السماء ، اشفوا مرضى ، وطهروا برصا . أقيموا موتى ، أخرجوا شياطين مجانا ، كما أخذتم مجانا أعطوا» .

ثم جاء في سفر الأعمال في الإصحاح الثالث والرابع والخامس ، ما معناه : «أن الرسل لما بدأوا أعمالهم ظهرت الخوارق العجيبة في أيدي بطرس ويوحنا وغيرهما ،حتى صار الناس يحملون إليهم المرضى ويبرأون جميعهم فيؤمنون ، وكان المؤمنون من أكثر جماهير الشعب من رجال ونساء ، ينضمون للرب ، حتى بلغوا خمسة آلاف في يوم واحد».

وعمل اليهود على القبض على الرسل وسجنوهم تحت حراسة ، لكن الرسل تخلصوا على طريق خرق العادة .

بهذا ظهر جليًّا أن آلافًا من الذين يدخلون في المسيحية إنما دفعهم إلى الدخول فيها الخوارق ، وكان ذلك بسبب شفاء المرضى ، والعمى ، والعرج ، والبرص ، وغيرهم .

ولما ضعفت قوة الخوارق الروحية بعد الحواريين ، انتقلوا إلى القوة المادية في معالجة المرضى بالمستشفيات والمستوصفات والملاجئ والمدارس .

أما تضحية المبشرين بأنفسهم ونفائسهم ، فللمسيحيين منها ما لا ينقضي منه العجب ـ لم يمت أحد من الحواريين الذين حملوا دعوة سيدنا عيسى بعده موتًا طبيعيًا ، غير يوحنا ، أما الباقون فقد ماتوا جميعًا شهداء في سبيل التبشير . وأولهم متّى الإنجيلي ، فقد جال مبشرًا حتى مات على أثر ضرب مبرح ،أو طعن موجع على أيدي جنود ملك أثيوبيا في بلاد الحبشة .

وثانيهم : بطرس الرسول ، حكموا عليه في روما بالموت صلبًا عام ٦٨م .

ثالثهم : يهوذا الملقب تداوس ، مات شهيدًا على يد المجوس ، في بلاد العجم .

رابعهم : يعقوب الصغير ، أول أسقف في أورشليم ، تآمر عليه اليهود وحكموا عليه في مجمعهم ، فرجموه ، عام ٦٣م .

خامسهم : سمعان القانوي ، تألب عليه كهنة الأصنام ، وصلبوا وسلخوا جلده ، وقطعوا رأسه .

سادسهم : فليبس ، مات مصلوبًا بآسيا الصغرى بولاية فريجية عام ٨٧م .

سابعهم : متياس ، الذي استبدلوه يهوذا الغادر ، مات رجما بحكم رئيس أحبار اليهود .

ثامنهم : بولس الرسول ، جال للتبشير في آسيا وأوربا حتى قطع رأسه في روما سنة ٧٠م في حكم نيرون ، إمبراطور الروم الذي أشعل النار في روما ، ثم أشرف على جبل يتمتع برؤية الحريق .

تاسعهم : لوقا الإنجيلي ، قد استشهد في حكم نيرون المذكور .

هؤلاء هم شهداء النصرانية الأوائل ، وبدمائهم رويت الشجرة النصرانية حتى استقامت وأثمرت وأتت أكلها إلى يومنا هذا .

هكذا فعل الرعيل الأول منهم ، ثم جاء من بعدهم من حذا حذوهم كأنما خلقوا من طينة واحدة ، وطبعوا جميعًا على حب الشهادة في سبيل ديانتهم .

ولقد كان المبشرون يقتلون ، ويصلبون ، ويلقون في النار أحياء ، ويُمثَّل بهم أشنع تمثيل ، فيتحملون كل ذلك بالصبر العجيب والحلم الغريب .

ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سيدهم عيسى قد افتدى بنفسه ، ورضى بالقتل الأزرق والموت الأحمر كفارة عن خطاياهم وخطايا العالم ، فلماذا لا يموتون كما مات ، ليكونوا في جواره في الجنة ؟

لهذا كانوا يعرضون أنفسهم لجميع الأخطار ، ويغامرون في سبيل كسب الأنفس للإنجيل .

بل أنهم اعتقدوا أنه يستحيل على المبشر المخلص لتبشيره أن يموت حتف أنفه ، لأن جميع الحواريين الأولين كلهم ماتوا شهداء التبشير .

ومن عجز منهم أن يضحي بنفسه لم يعجز أن يضحي بنفائسه من ماله وعرضه . والتضحية في سبيل الدعوة تعني تحمل الاضطهاد في سبيل العقيدة أو الفكرة ، على أن التضحية والاضطهاد إنما يكونان في أهم أسباب انتشار العقيدة أو الفكرة ، لأن النفوس مطبوعة على رحمة المعذبين ، والبحث عن بواعث تعذيبهم ، ولهذا قيل :

إن الاضطهاد يذيع الآراء وينشرها ، ويلفت الأنظار إليها حتى يكثر أتباعها ، فيعملون لكسب الأنصار لها بحجة أن أصحاب الرأي أو الفكرة أو العقيدة مظلومون من أعدائهم » .

● مقارنة بين شهداء الإسلام ، وشهداء النصرانية

الشهادة في سبيل غرس العقيدة وإحيائها ضريبة واجبة على المؤمنين بالعقيدة ، لذلك كانت الشهادة عند النصارى تحتل الدرجة الأولى في ديانتهم ، وكان الشهداء عندهم تكتب أسمائهم بحروف بارزة ، وبمداد من الذهب .

أما المسلمون فلم يهتم كُتَّابُهم بكتابة أخبار شهداء الإسلام ، إلا ما كان منشورًا في بطون الكتب المختلفة .

ومن المحدثين الذين اهتموا بأخبار الشهداء في الإسلام : الدكتور سامي علي النشار ، قال في كتابه «شهداء الإسلام» : إن المسلمين ليعرفون عن شهداء المسيحية أكثر مما يعرفون عن شهدائهم العظماء الذين شادوا بدمائهم الأمة الإسلامية ، ورفعوا على أجسامهم قوائمها .

ثم قال : «ولعل السبب في هذا راجع إلى اهتمام كثير من مؤرخي المسيحية وشعرائهم بالكتابة عن ضحاياهم ، والتغني بأمجادهم ، والسمو بهم إلى رتبة القديسين الأبرار» .

وأنا أقول : إن من الأسباب التي تحمل النصارى على الاهتمام بشهدائهم هو سقوط كثير من أبطالهم تحت أقدام أعدائهم .

فهذا سيدنا عيسى عليه السلام ، لم ينتصر على أعدائه اليهود إلا برفعه إلى السماء كما أخبر به القرآن ، أو بقتله وصلبه كما زعم[1] اليهود والنصارى .

ثم إن جميع الحواريين سقطوا : الواحد بعد الآخر تحت أقدام أعدائهم ، أما أبطال الإسلام فلا يحصيهم حصر في كل زمان ومكان ، وقلما يسقطون صرعى في ميدان القتال ، وقلما كانوا فريسة لأعدائهم ، لم يستشهد في ميدان القتال قائد معروف من قواد الإسلام ، ولا أمير من أمراء الجنود ، إلا ما كان من شهادة حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد ، وشهادة جعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين[2] .

---

(١) قد اخترت لفظ «زعم» لأنها لا تستعمل عربيًا إلا للدلالة على الكذب قال تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (التغابن:٧) .

(٢) وما سقط منهم أحد إلا بعد أن شفي نفسه من أعداء الله ورسوله وأبرأ سقمها ، وسقي عدوه الكأس المترعة من أهوال الحرب والنزال .

أما الشهداء من الجنود العاديين ، فقد خلد القرآن ذكراهم ، ورفع مستواهم ، وقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٩) .

وقال أيضًا : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩) .

● التبشير وتطوراته

التبشير وسيلة كبيرة من أهم وسائل انتشار النصرانية ، ومن مبتكراتها .

يقول الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي في دائرة معارفه : « مادة بشر » : « إن الدعوة إلى الدين من مبتكرات المسيحية ، لم تعرف قبل تاريخهم ، فلا أثر لها في الأديان القديمة » .

ومعنى هذا أن الدعوة الدينية كانت من خصائص الأنبياء دون غيرهم ، ولم يكن يتحملها أتباعهم ، ما لم يكونوا أنبياء مثلهم ، وإنما كان الربانيون يحكمون بالتوراة ، كالقضاة ليس كالدعاة ، ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الصحيح : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي »[1] .

فدعوة سيدنا عيسى وحده هي التي امتدت إلى ما بعده بأعمال التبشير المنتشر في أنحاء العالم الآسيوي والأفريقي والأوربي .

وكان كل مبشر يتطوع بعمله من تلقاء نفسه ، ويتجول في البلاد من أجله ، وظل كذلك عملاً فرديًا مقرونًا بالاضطهاد والقتل والتشريد ، حتى دخل أباطرة الروم في المسيحية ، وأعلن الإمبراطور قسطنطين حمايته على المسيحية ، وحرَّم اضطهاد رجال الكنيسة ، ورفع من شأن المبشرين ، وتحمل شئونهم ، فصار الأباطرة يرسلون المبشرين إلى البلاد على هيئة سفراء باسم المسيح واسم الإمبراطور معًا .

---

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة .

وكان رئيس كل كنيسة يلقب بالبابا ، امتدادًا لما كان من اليهود من مدرسة أبناء الأنبياء .

والتزم المسيحيون هذا الاسم حتى أعلن البابا غريغوار عام ١٠٨١م أن لا يحمل هذا اللقب غير قسيس روما وحده ، الذي يعتبر رئيسًا عامًا لجميع الأساقفة ، لاقترابه من الإمبراطور الرومي .

وكان البابا ينتخب من بين الكرادلة المائة بثلثي أصواتهم وذلك بعد أسبوعين من موت البابا السابق ، ويبلغ عدد الذين اقتعدوا كرسي البابوية منذ أيام بطرس إلى وقت الطبعة الثالثة في هذا الكتاب (٢٦١ بابا) .

ثم أصدرت الكنيسة قرارًا ينص بأن البابا معصوم من كل خطأ ، فمنعت الشعب استعمال العقل في الدين ، فتذمر الشعب من ذلك .

ثم أصدرت قرارًا ببيع الغفران وحرمان الغفران ، لمن شاء البابا ، فنجمت ثورة إصلاحية من الشعب ومن بعض رجال الكنيسة ، وكانت الثورة تدعى بالبروتستانتية ، وكان من قواد هذه الثورة من الأساقفة . مارتن لوثر الألماني ، وزونجلي السويسري ، وكلفن الفرنسي .

وكلهم ثاروا على طغيان البابا وقراراته التي ليس لها نص في العهد القديم والجديد ، فأعلنت الكنيسة حربها على الثوار ، فتألبت معها الأباطرة والملوك ، فأنشأت محاكم التفتيش .

● ما هي محاكم التفتيش ؟

هي المحاكم التي أقامتها الدولة والكنيسة لبحث عقائد المتهمين في جميع أقطار أوربا ، وتعذيب من أدين بجريمة الكفر أو الإلحاد : الذي هو مخالفة الكنيسة بمختلف العذاب .

وقد أحرقوا بعض الناس بالنار أحياء ، وسجنوا البعض ، وشردوا الآخرين ، وصادروا أملاكهم ، وأحرقوا كتبهم .

دامت هذه المحاكم لمدة ١٨ سنة ، وحكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بالإحراق ، وعلى ستة آلاف وثمانمائة بالشنق ، وعلى سبعة وتسعين ألفًا بالعقوبات المختلفة[١].

ثم تقوت سلطة البابا حتى فاقت سلطة الإمبراطور نفسه ، فأصبح البابوات يتوجون الأباطرة : يولون من يشاءون ، ويعزلون من يكرهون ، وقالوا : إن العالم تحكمه قوتان : قوة الكنيسة ، وقوة الإمبراطورية ، والكنيسة مسئولة أمام الله عن الملوك .

هكذا بلغت سيطرة الكنيسة على الملوك ، فتذمروا منها ، فانشقت الدولة من الكنيسة ، فظهر النزاع بين الباباوات والملوك ، فانتهى بأن قررت البرلمانات في إنجلترا وفرنسا وألمانيا أن ليس للبابا حق التدخل في الشئون السياسية العامة ، ثم اعتقبت ذلك الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وأعلنت مبدأ فصل الدين عن الدولة ، فطردت رجال الدين من ميدان الحكم والسياسة ، فنتج من ذلك كله أن خلع الأوربيون من رقابهم الدين ، وظنوا أن كل دين مثل النصرانية التي ظلمتهم شعبًا وحكومة ، بما ليس له نص في كتابهم .

● فرق النصارى

افترقت النصارى أكثر مما افترقت اليهود ، كما أخبر به الصادق الأمين ﷺ : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة»[٢].

وأول خلاف وقع بين النصارى وأحدث الفرقة بينهم ، هو ما كان بين : برنابا وبولس ، واستطاع بولس بقوة بلاغته ودعايته أن يستميل إليه أكثر أتباع المسيح ، وأن يدس سموم الفلسفة اليونانية والوثنية الرومانية في الديانة المسيحية .

---

(١) الإسلام والنصرانية ، لمحمد عبده ص ٤٧ .

(٢) رواه الأربعة عن أبي هريرة ، وللحديث بقية .

وقد ذكر برنابا في مقدمة إنجيله أسباب ذلك أكثر وضوحًا .

قال برنابا : « إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه ، يسوع المسيح ، برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، رافضين الختان الذي أمر الله به دائمًا ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين في عدادهم أيضًا بولس ، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى » .

ومع كون تعاليم برنابا موافقة لما جاء به المسيح من التوحيد والحق ، فقد عملت الحكومة الرومانية على إبعاد تعاليمه وإنجيله عن الكنيسة الرسمية .

وأكبر خلاف ظهر بعد ذلك ، هو : ما سموه بدعة « آريوس » التي تم من أجلها عقد مجمع « نيقية »[1] حيث قرروا إدخال التثليث في العقيدة النصرانية ، فخالفهم « آريوس » بطريك الإسكندرية فظل محافظًا على التوحيد ، فكفرته الكنيسة الرسمية .

ثم ظهرت فرقة مقدونيوس ، وهو بطريك الإسكندرية أيضًا ، وكان يشايع آريوس في مذهبه وأنكر ألوهية روح القدس .

ثم ظهرت فرقة نسطور وهو بطريك القسطنطينية وهي فرقة أنكرت البنوة الحقيقية لله ، بل إن عيسى إنسان أحبه الله تعالى ، فصار ابن الله بطريق المحبة[2] .

ثم فرقة اليعقوبيين ، وهم الذين يقولون بأن المسيح جمع بين الطبيعتين : اللاهوت والناسوت .

وهناك فرقة تسمى غنوسطية ، لا هي مسيحية خالصة ، ولا غيرها ، ولكنها جماعات دينية صوفية ظهرت في القرن الثاني الميلادي ، ولها نزعة إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ، والجمع بين سائر الأديان .

---

(١) مدينة قرب القسطنطينية .

(٢) محاضرات في النصرانية : لفضيلة المرحوم الشيخ محمد أبي زهرة ص ١٥٤ وما بعدها .

وفرقة الرهبنة وهي نذر التبتل إلى الله ، مع اختيار الفقر طوعًا ، أنشأها الآباء الرهبان المصريون عام ٢٢٨م[١] .

تلك هي الفرق المسيحية القديمة ، وقد ذاب اليوم أكثرها في الفرق الحديثة الآتية :

وهي : الكاثوليكية ، وهم أمثال أهل السنة والجماعة عندنا نحن المسلمين . وهم أتباع الكنيسة الغربية .

والأرثوذوكس ، وهم أمثال أهل الرأي الصحيح والقياس ، وأتباع الكنيسة الشرقية .

ثم البروتستانت ، وهم أهل النصوص بغير تأويل ، كالحنابلة السلفيين دعاة الإصلاح .

• ما هو التبشير المسيحي ؟

التبشير في الديانة النصرانية ، هو الغاية والوسيلة معًا .

وكل شيء في الدعوة النصرانية يبتدئ بالتبشير ، وينتهي بالتبشير ، ولعلك تفهم ذلك جليًا في معنى الإنجيل إذ ليس له معنى غير البشارة .

فالتبشير بالإنجيل هو حمل الإنجيل للتبشير به .

فالإنجيل ككتاب هو تاريخ ولادة المسيح ، وحياته وطائفة من مواعظه ، ثم نهايته .

والإنجيل كبشارة هو الإخبار بقرب مجيء ملكوت السماء ، أو طلب مجيء ملكوت السماء .

وفي صيغة الصلاة اليومية ـ التي كان ولا يزال يرددها النصارى منذ ألفي عام ـ طلب مجيء ملكوت السماء ، وذلك كما في الإصحاح السادس من إنجيل متَّى ، هكذا :

---

(١) وربما تأثر التصوف الإسلامي فيما بعد بهذين المذهبين : الغنوسطي ، والرهباني .

«أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك ، كما في السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا ، كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير ، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد . آمين» .

تأمل كلمة : ليأت ملكوتك ، فمتى يأتي ملكوت الله الذي ظلوا يطلبونه منذ عشرين قرنًا من الزمان ؟ إن لم يكن قد أتى وهم يعلمون ، ولكنهم يتجاهلون وينكرون .

• أساليب التبشير

أما أساليب التبشير فكثيرة :

منها التبشير بالخير دائمًا ، وعدم الإنذار بالشر ، وتخفيف الأثقال الدينية عن الأمم ، كما سبق أن اجتمع الأولون منهم على أن يخففوا على الناس أحكام التوراة ، وأن يعفوا عنهم غير الأربعة (أكل ما ذبح للأصنام ، والدم ، والمخنوق ، والزنا) . أما غير ذلك ، فلا بأس للنصراني أن يفعله .

وللتبشير نوعان من الأساليب : نوع طيب ، ونوع خبيث .

ومن أساليبهم الطيبة أنهم اتخذوا محاربة أعداء الإنسانية شعارًا لهم ، فحاربوا : الجهل ، والمرض ، والفقر .

حاربوا الجهل بفتح المدارس على اختلاف المستويات ، وقد بنوا إلى جانب كل كنيسة مدرسة ، وكانوا يهتمون بالقرى أكثر من اهتمامهم بالمدن . .

حاربوا المرض بفتح المستشفيات والمستوصفات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وكانوا يراعون الداء المنتشر في كل ناحية من نواحي البلاد ، ليفتحوا هناك مستشفى خاصًا بذلك الداء .

مستشفى الرمد ، حيث يكثر المكفوفون .

مستشفى الأمراض الجلدية ، حيث يكثر البرص .

مستشفى التوليد في المناطق النائية عن العمران .

ويطلبون من كل مريض أن يحضر الصلاة المسيحية في كل صباح ومساء ، وكل مريض يمتنع عن ذلك يهملون شأنه ولا يعالجونه .

وإذا علمت أنهم إنما استبدلوا الخوارق الروحية بالعوامل المادية حاربوا الفقر بالتوظيف ، حيث قد أسسوا عدة مؤسسات ، وفتحوا المحلات الصناعية والغرف التجارية ، والمزارع ، وهم إنما فعلوا ذلك لدعم أعمال التبشير ، فلا تؤاخذهم إذا أهملوا من لا يقبل منهم دينهم .

وكذلك أنشأوا المطابع والمكتبات لنشر الأناجيل والمجلات والصحف التي تخدم المجتمع من ناحية ، وتخدم التبشير من ناحية أخرى ، وتنشر الإنجيل بمختلف اللغات ، ولا يتوظف في هذه المؤسسات غير أوفياء التبشير المؤمنين بالثالوث .

أنشأوا محطات الإذاعة خاصة للتبشير ، وهي تذيع بمختلف اللغات ، ولهم في لبنان ، والخرطوم ، وليبريا ، ونيجيريا ، عدة محطات لخدمة الإنجيل .

● **تخريج المبشرين**

ومن أساليبهم الطيبة التي يحسدون عليها : أنهم يهتمون بتدريب الدعاة اهتمامًا بالغًا .

وقد كانوا يعتقدون ضرورة تعلم التبشير والدعوة إلى الدين ، قبل القيام بها ، واعتبروا التمرين على عملية الرهبنة والكهنوتية كضرورة علم الكيمياء والصيدلة والتشريح ، قبل تعلم الطب والتطبيب ، وضرورة تعلم القانون والمحاماة قبل تولي القضاء ، وكذلك ضرورة تعلم التبشير قبل عمليته ، ومهما يبلغ مستوى الرجل في سائر العلوم فإنه لا يقوم بالتبشير قبل تعلمه في معهد التبشير .

لذلك فتحوا لتخريج المبشرين معاهد وكليات عالية في كل قطر وفي كل مصر ، ليتمرنوا على تحمل مشاق الدعوة والصبر عليها ، والتمرين على معيشة الكفاف والقناعة ، وعلى المعيشة في المناطق النائية التي تقل فيها الرفاهية .

وأول ما عُرِف من تلك المعاهد ما أسسه اليهود أيام صمويل من بعد النبي موسى ، وسموه مدرسة أبناء الأنبياء ، أو ما سموه بـ«المدراس»[1] حيث يتدارسون فيه التوراة والتلمود .

ولما جاء النصارى عملوا على هذا المنوال ، وأول ما عرف من ذلك هو ما أسسه البابا غريغوار الخامس عام ١٦٣٣م في روما لتمرين الشبان على صناعة الدعوة ، وبجانبه مطبعة لطبع نشرات دينية ، تنشر بخمسين لغة من مختلف لغات العالم .

ثم تأسس معهد آخر للبابوات ، وهو خاص بتمرين الكرادلة على وظيفة الدعوة ، وإعدادهم لمنصب كرسي البابوية ، وهو موجود حتى الآن . .

ولكل طائفة من الطوائف المسيحية في أنحاء العالم معاهد وكليات لتخريج المبشرين .

وأول ما عرف من هذا النوع في غرب أفريقيا يرجع إلى عام ١٨٢٧م حيث أسسوا في مدينة سيراليون مدينة سموها «فريتاون» وهي مدينة أنشئت خاصة للعبيد المتحررين ، وأنشئت معها مدرسة «فورابي» التي أنجبت الدفعة الأولى من مئات المبشرين ، الذين نشروا المسيحية في : غانا ، وغمبيا ، وسيراليون ، وليبيريا ، ونيجيريا ، وقد تحولت المدرسة إلى جامعة ، بعد الاستقلال .

وأقدم مدرسة لتخريج المبشرين في نيجيريا هي «الكلية المعمدانية» في مدينة «أوبومشو» على مقربة من عاصمة بلاد يوربا مدينة «أويو» .

وقد تأسست المدرسة عام ١٩٣٤م ، وبجانبها مستشفى كبير لعب دورًا هامًا في معالجة المرضى ، قبل إنشاء مستشفيات الجامعة الحديثة .

وكانت هذه المدرسة تُعَلِّم أساليب التبشير وتخرج المبشرين على اختلاف المراحل ، وفيها قسم خاص لتمرين النساء ، وقسم خاص للتمرين على الدعوة

---

(١) المدراس : بوزن المفتاح .

باللغة المحلية في الأوساط البدائية . ولا يمكن حصر المدارس التي تخرج المبشرين اليوم في نيجيريا .

● مقارنة بين تخريج دعاتهم وتخريج دعاتنا

لا شك في أن المبشرين الصليبيين كانوا آية في الاستعداد للعمل في المناطق النائية البعيدة عن أسباب الراحة والرفاهية الحديثة .

وإذا كان في الدعاة الإسلاميين من هذا النوع ، ففي الرعيل الأول ، أو بعض عباقرة الدعاة المجددين ، أو بعض الرجال الصوفيين .

أما الغالبية العظمى من الدعاة اليوم ، فإنهم ليسوا من هذا الطراز ، رغم أن المعاهد الإسلامية وجامعاتها القديمة والحديثة : كالقرويين ، والأزهر ، والزيتونة ، وجامعة المدينة ، والخرطوم ، ومعاهد الهند ، وعشرات أمثالها في العالم العربي والإسلامي ، كانت ولا تزال تعلم الطلاب : قواعد اللغة العربية ، وأصول الشريعة الإسلامية ، وتخرج الوعاظ ، والخطباء ، والأئمة ، الذين كانت تعتمد عليهم الدعوة الإسلامية حتى اليوم ، ولكن الحقيقة التي لا ينكرها منصف هي : أن الدعوة الإسلامية في حاجة إلى من لا يطمع في المناصب والوظائف الرسمية أكثر من التضحية في سبيل الدعوة المفروشة بالأشواك[1] ، وقد تقدم علينا في هذا الصدد المبشرون .

● أساليب المبشرين الخبيثة

أما أساليبهم الخبيثة ، ووسائلهم السيئة فتتلخص في الاستعمار ، والاستشراق ، والاستغراب .

أما الاستعمار فهو عمرانهم لبلاد الإسلام ، لاستغلال خيراتها وفوائدها ، واستعباد أهلها في عقر ديارهم بحجة الامتياز الأوربي على غيره : فكريًا ، وأدبيًا ، وماديًا ، وثقافيًا ، وسياسيًا .

---

(١) لقد أخلد المبشرون المسلمون (الوعاظ والدعاة) إلى الأرض وآثروا الراحة والدعة على البذل والعطاء والإعطاء ، فنكبوا الإسلام أكثر مما أفادوه .

المستعمرون الغربيون أنصار التبشير الصليبي الذين يعملون معًا جنبًا إلى جنب ولغرض واحد ، فإذا تقدم المستعمرون إلى بلد وتمكنوا فيه استوفدوا إليه المبشرين ، وأطلقوا فيه حرية التبشير بلا قيد ولا شرط .

وبذلك امتزج الاستعمار والتبشير امتزاج الماء بالراح ، فأصبح الأول يخصص رصيدًا ضخمًا من ميزانيته للثاني ، حتى يستطيع القيام بما يسمونه الخدمات الإنسانية العامة على أوسع نطاق ، تحت عنوان محاربة «الجهل ، والفقر ، والمرض» .

وكان أساقفة الكنائس سفراء الاستعمار في كل دولة مستعمرة ، فجعل الاستعمار شئون التعليم والتطبيب بيد المبشرين الصليبيين ، وكل مستشفى حكومي يحمل شعار الصليب الأحمر . وكل من يتخرج من المدارس الحكومية لابد أن يحلف يمين الطاعة للكنيسة أنه يستخدم نفوذه للتبشير الصليبي في كل منصب يتولاه ، وسواء أكان حاكمًا ، أو مديرًا ، أو قاضيًا ، أو وزيرًا ، أو مدرسًا ، أو تاجرًا ، أو صانعًا ، فترى كل مسيحي في كل منصب يبذل كل ما يملك لنصرة الصليب ، ولمعاداة غير المسيحي ، أكثر مما يبذله كل أسقف في الكنيسة .

وجد التبشير والاستعمار أن الإسلام وحده هو حجر العثرة في طريقهما والمعارض لتياراتهما الجارفة ، فأخذا في شن حملاتهما عليه داخل حصنه وخارجه .

أخذ الاستعمار في تفكيك عرى الوحدة الإسلامية ، وتمزيق شمل المسلمين ، وأخذ التبشير في توهين قدر الثقافة الإسلامية ، وتنكيث قواها .

● مقارنة بين استقلال المساجد واستعمار الكنائس

لا يحسبن إنسان أن الاستعمار قد انقضى لأن المستعمرين قد رجعوا إلى بلادهم ، وتركوا بلاد الإسلام لأهلها ، فإن المبشرين من أبناء البلاد أشد وبالاً من المستعمرين السابقين ، فإن لهم صلات وثيقة ببعضهم البعض .

فالكنائس المنتشرة في البلاد الإسلامية تربطها علاقات قوية مع عناصرها ومراكزها في أوربا وأمريكا .

لذلك يهتم المستعمرون بتعمير الكنائس وتشييدها في أفريقيا وآسيا ، على حين أن الكنائس في أوربا تباع وتوهب ، لعدم صلاحيتها هناك .

فالكنائس في أفريقيا وآسيا مراكز للاستعمار ، ينطلقون منها إلى ميادين الغزو الفكري والسياسي والاقتصادي ، تحت ستار التبشير والصليب الأحمر والإغاثة الطبية لخدمة الإنسانية (هكذا يزعمون) .

فالكنائس تختلف في طبيعتها عن المساجد الإسلامية .

أما المساجد الإسلامية ، فلم تكن في يوم من الأيام منطلق الاستعمار العربي ، فمنذ أشرقت شمس الإسلام بنور الله على الجزيرة العربية ، وأرسلت أشعتها على أرجاء الدنيا ، وهي تبدد غيوم الجهل عن سماء العقول ، وتكشف دياجير الكفر عن آفاق الفكر ، فتفتحت عيون البشرية على ضوء الإسلام .

وكان العرب أول من اختارهم الله لتلقي هذه الرسالة وتحملها إلى سائر الأنام عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

(الزخرف:٤٤) .

قام العرب بتأدية أمانة الدعوة خير قيام ، وحملوا هذه الأمانة على أكتافهم ، وبلغوها لسائر الأنام ، وفتحوا بلاد الروم والفرس ، وبلاد النوبة والبربر ، والهند والسند ، ونشروا فيها الدين والعلم والثقافة والحضارة .

وأحسن ما امتاز به العرب في هذه الفتوحات أنهم رفعوا تلك الأمم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الحضيض إلى أوج الرقى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ولم يكونوا مستعمرين ولا مستغلين ولا مستعبدين ، وإنما كانوا محررين ، وكانوا رسل السلام والإيمان ، وحماة العلم والعرفان ، ينشرون الحضارة والحرية أينما حلوا وارتحلوا .

يعلمون أهل البلاد الإسلام ، ثم يعودون من حيث أتوا ، تاركين البلاد لأهلها ليباشروا شئون دينهم ودنياهم ، بأنفسهم ، على وفق ما يطابق محيطهم وتقاليدهم وعاداتهم .

لم يفتح العرب قطرًا ولا قارة بقصد الاستعمار أبدًا ، وإنما فتحوها لنشر الإسلام فيها ، وإذا تخلف فيها منهم عدد امتزجوا بالمواطنين ، ولم يتميزوا عليهم بلون ولا بشرف ولا نسب ، عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح »[1] .

لم يكن لمسلم على مسلم آخر تبعة دينية يفرضها إمام أو خليفة أو سلطان ، وكل مسلم مع مسلم آخر سواسية كأسنان المشط ، وكانت المساجد الإسلامية في أنحاء العالم مستقلة تمام الاستقلال عن كل مسجد .

وإن كانت المساجد كلها تدين باعتراف الأسبقية والأفضلية لثلاثة مساجد - وإنما كان ذلك لربط الأعضاء بالرأس والصدر والقلب ، وغاية ما ينتهي إليه الاعتراف أن يزورها المسلم لحديث : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى »[2] .

أما الكنائس فلا بد أن تدين بالولاء لكنيسة أخرى أكبر منها في أوربا أو أمريكا أو آسيا وغيرها من البلاد .

ومن أساليب المبشرين الخبيثة ، ووسائلهم السيئة : الاستشراق ، والاستشراق هو التظاهر بالحب والولاء لآداب الإسلام وثقافته ولغته ، فيتوجه قس أو راهب في صورة طالب علم ، أو باحث حقيقة تاريخية شرقية ، فيتوجه إلى بلاد العرب ليختلط بعلمائهم في المدن والقرى والمعاهد ، ليقف على أسرار اللغة العربية وتقاليد العرب ، بقصد النيل منها ، فيعمد إلى تأليف كتاب

---

(١) وروى أيضًا بلفظ آخر : « ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح ... » الحديث ، رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن عامر .

(٢) متفق عليه ، و رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

بلغته ، يتعمد فيه الافتراض لافتراء على التاريخ ويتجنى على الإسلام ونبي الإسلام .

ولما تمكنوا من شيء لا بأس به في الثقافة العربية ، عمدوا إلى إنشاء معاهد الاستشراق في جامعاتهم ورصدوا لها أموالاً طائلة ، ونشروا فيها مؤلفاتهم ، وعقدوا فيها مؤتمراتهم ، يتسترون وراء البحث العلمي والنقد الأدبي للوصول إلى أهدافهم .

وأول معهد عرف من هذا النوع هو معهد الدراسات الشرقية الذي أنشئ سنة ١٩١٦م في جامعة لندن ، ثم عملت على غرارها جامعات أخرى في أمريكا وكندا وغيرها من أقطار أوربا . وهدفهم في ذلك كله تشويه وجه الإسلام المليح ، والتشكيك في عقيدة المسلمين الصحيحة ، وقلب الحقائق أباطيل بأسلوب المغالطة ، والتوهين من قيمة اللغة العربية الفصحى ، وتفضيل العامية أو ما يسمونه «العربية الحديثة» على القديمة ، حتى يتخرج على أيديهم الطلاب المسلمون الأعداء لإسلامهم ولغتهم العربية ، يفضلون الآداب الغربية واللغات الأوربية على لغتهم التي نزل بها القرآن .

● **أما ثالثة الأثافي ، فهي الاستغراب**

والاستغراب هو تحويل وجهة المسلمين من عرب وغيرهم عن بلادهم إلى أوربا وأمريكا لتكميل دراساتهم هناك ، حيث يتمكن العدو من دس سمومه في الأفكار السليمة ، فيصبح أبناء المسلمين لا دين لهم ، بل ملاحدة ، يعتقدون ما يشاءون ، وينتقدون ما يريدون ، بلا وازع ولا رادع ، ولا آمر ولا ناه ، يتعودون على ذلك مدة بقائهم في أوربا وأمريكا ، فإذا رجعوا إلى بلادهم صاروا حربًا على أهلها وعلى ثقافتهم وتقاليدهم وعقيدتهم ، وتظاهروا بالتقدم الأجوف .

يرون الخير كل الخير فيما أتوا به من الغرب ، وأن الشر كل الشر فيما وجدوا عليه آباءهم وعلماءهم من العقيدة الصحيحة والديانة والثقافة

والحضارة ، وهم ممتلئون غيظًا وحقدًا على من يتمسك بتلك اللغة والعقيدة والثقافة ، وإذا كنت بين هؤلاء زعموا أنهم أحسن منك عقلاً وعلمًا وثقافة ودينًا ، وقال شاعر :

إذا شئت أن تحيا سعيدًا لديهم فلا تك عربيًّا ، ولا تك مسلمًا

● تحذير المسلمين من مكائد التبشير

يجب على الدعاة أن يهتموا بدراسة خطوات التبشير بوعي كامل ، وتتبع خططهم عن كثب وإمعان ، حتى يستطيع المسلمون أن يكشفوا مؤامراتهم ويحذروا أنفسهم وأبناءهم وأحفادهم من الوقوع في ورطاتهم وحبائلهم .

ولتكن هذه الدراسة في غير أسلوب الشكاية والجزع وإظهار تفوقهم علينا ، ولكن في أسلوب محاولة رد الفعل وإعداد العدة لرد العدوان والدفاع عن النفس والدين: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٤) .

قال الشيخ المغيلي : « إنك لا تدفع الخوف إلا بالتخويف ، لأن كل من خوفك لا تسلم منه إلا بتخويفك إياه ، لا بالهروب منه ، وطلب الصلح معه ».

● بعض ما يُستفاد من استعراض تاريخ النصرانية

قلنا إن أهم أسباب انتشار المسيحية ظهور الخوارق على أيدي المسيح ، ثم على أيدي أتباعه من الحواريين ومن بعدهم من الرهبان .

ولا شك في أن للخوارق أثرًا عميقًا في الاستيلاء على نفوس البشرية : البسطاء منهم والعقلاء .

لذلك كانت المعجزات مقرونة بدعوى النبوة ، وتصديقًا لدعواهم : أنهم مبعوثون من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

ولولا المعجزات لما صدق الناس أنهم أتوا من عند الله الذي وضع نظام الكائنات على سننها الجارية على طبائعها .

ثم أعطى هؤلاء القدرة على تغيير تلك السنن الجارية تثبيتًا لدعواهم ، لهذا كانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وكانت الناقة من الصخرة لصالح المبعوث إلى ثمود .

وانقلبت العصا حية على يد موسى ، وولد عيسى من غير أب ، ثم كان له إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

وكانت البلاغة القرآنية الخالدة على لسان محمد النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

● الكرامات والمعجزات

لم ينته أثر المعجزات في نفوس الناس بانقضاء أمد الأنبياء ، فقد أبقى الله أثر معجزات الأنبياء في كرامات الأولياء إلى يوم الدين .

ولقد كان عالم من علماء بني إسرائيل في عهد النبي سليمان وليًا وهبه الله الكرامة فاستعان بها سليمان لإدخال الإيمان في قلب ملكة سبأ .

إذ قال : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾

(النمل:٣٨-٤٠) .

والكرامة التي أعطاها الله لأصحاب الكهف ، الذين لبثوا ﴿ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ (الكهف:٢٥) [1] كانت سببًا في إيمان الذين كشفوا أمرهم .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾(الكهف:٢١) .

---

(١) بلفظ : ﴿ وَلَبِثُوا۟ . . . ﴾ .

ولقد جاء في الحديث أن كثيراً من عُبَّاد بني إسرائيل ونُسَّاكهم مثل : جريج الراهب ، والثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار الصخرة فانطبقت عليهم ، فدعوا ربهم فانفرجت ، وما جاء في قصة أصحاب الأخدود من كرامات الغلام الراهب الذين آمن الناس على كراماته عند الملك الساحر ، حيث أعلنوا وقالوا : آمنا برب الغلام ، كل ذلك دليل على أن للكرامات أثراً في نشر الدعوة إلى الله ، كما كانت للمعجزات آثار في تصديق الأنبياء والرسل ، فكيف يحصل الداعية على الكرامات التي تساعده على نشر الدعوة ؟

● الولاية سبب الكرامة

لا تحصل الكرامة إلا لولي الله ، ومعنى ولي الله : القريب منه والصاحب له[1]، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة:٢٥٧) .

وقال : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:٦٨) .

وقال أيضًا : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الجاثية:١٩) .

وجاء في الصحيحين فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى يقول : « من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » . وفي رواية : « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي » .

إن استجابة الدعاء على يد الداعية هي البشرى العاجلة لهم في الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

---

(١) ونقصد بهذا أن يكون الله تعالى في قلبك وخاطرك ، لا يبرحه ، فلا تعمل إلا عملاً يرضيه ، ولا تنتهي إلا عن شيء يبغضه ، فتحب لله ، وتبغض لله . وبهذا تكون ربانيًّا تقول للشيء كن فيكون .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (يونس:٦٢-٦٤) .

● **الإسلام والتسامح مع أهل الكتاب**

لقد صرح القرآن بأن رسالات السماء كلها واحدة ، أتت من رب واحد ، وأن الله جعل الإسلام خاتمة الأديان ، لذلك جعل علاقته بها علاقة الاستيعاب للأطراف المتناثرة ، ففي القرآن أخبار الأنبياء الذين خلوا ، بعضها بالإجمال وبعضها بالتفصيل ، وقد كرر القرآن قصة سيدنا موسى وعيسى وسائر أنبياء بني إسرائيل في مواضع كثيرة ، وصرح بإحلال طعامهم ونكاحهم للمسلمين ، وقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة:٥) .

وقد طبق النبي ﷺ أصول المعاملة الطيبة بينه وبين اليهود والنصارى في مواضع كثيرة دونتها كتب التاريخ والسير ، وعمل المسلمون على مقتضاها في مختلف الأعصار والأمصار ، ولم يبغضوا يهوديًا ولا نصرانيًا من أجل دينه ، ولم يضطهدوه من أجل عقيدته ، بل سمحوا للنصارى واليهود أن يمارسوا طقوس دينهم تحت حماية دولتهم «الإسلام» كما يشاءون .

لم يمنعوا الكنائس والبِيَعَ أن تدق نواقيسها إلى جانب أذان المساجد في الدول الإسلامية .

وتبادلوا العلوم مع علماء اليهود والنصارى في مختلف العصور ، وسمح الخلفاء للأطباء والفلاسفة والكُتَّاب منهم أن يكونوا أعضاء بلاطهم ، وقد سجل التاريخ عددًا ممن نبغ منهم تحت ظل الخلفاء ، وإذا استثنينا الحجاز التي جاء فيها عن النبي حديث يقول : «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان» . ففي كل بلد إسلامي يحكمه أمير مسلم كان يتمتع اليهود والنصارى بحرية دينهم ، تحت حكم «الذمة والعهد والولاء للدولة» فالمسلمون في هذا الصدد كمثل قول الشاعر العربي :

ملكنا فكـــان العفـــو منـــا ســـجية ولمـــا ملكـــتم ســـال بالـــدم أبطـــح
فحســـبكم هـــذا التفـــاوت بيننـــا وكـــل إنـــاء بالـــذي فيـــه ينضـــح

● **الدعوة و التعصب**

التعصب هو التحيز إلى قوم أو التحمس لعقيدة أو فكرة والدفاع عنها على الحق أو الباطل وفي الحديث : «ليس منا من دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية»[1] .

كان اليهود والنصارى يطلقون وصف التعصب على كل مسلم متمسك بدينه ، ويزدرونه بذلك ، ويقولون : إن التعصب لدين ما : رجعية ، وهم في هذه الحالة كالمثل القائل : «رمتني بدائها وانسلت» .

يقول ابن خلدون : «إن الشرائع والديانات ، وكل أمر يحمل عليه الجمهور ، فلا بد فيه من العصبية ، إذ المطالبة لا تتم إلا بها ، فالعصبية ضرورية للملة ، وبوجودها يتم أمر الله ، إذا ذم الشارع العصبية ، فإنما مراده حيث تكون على الباطل وأحواله ، كما كانت في الجاهلية .

أما إذا كانت في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ، ولو بطل لبطلت الشرائع ، إذ لا تتم قوامها إلا بالعصبية ، وليس مراد الشرع فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية ، أو اقتلاعه من أصله ، وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية ، إنما تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة ، حتى تصير المقاصد كلها وتتحد الوجهة».

علم المستعمرون ما للتعصب من قوة ومنفعة لكل فكرة أو دعوة ، فبدأوا يحاربونه في الإسلام ويعدونه من رواسب الهمجية ، وإذا رأوا أحد يتمسك بدينه ويؤمن بربه إيمانًا جازمًا قالوا : إنه متعصب ، والتعصب رجعية وتأخر .

ولما غلب المسلمون في عقر ديارهم انقلبوا صاغرين في أعينهم ، وأصبحوا لا يرون من عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم ما يستحق البقاء والخلود ، بل يرون

---

(١) رواه أبو داود عن مطعم بن جبير .

الأحسن أن تقتلع كلها من جذورها ، أو تستأصل شأفتها ، إلا ما استحسنه الغربيون .

لهذا يقع المغلوبون على أمرهم في تنزيه أنفسهم ، وتنزيه دينهم من العصبية ويضعون الحديث الوارد فيها في غير محله .

وإذا ذم الغربيون شيئًا من تقاليدهم اعتبروا الرجوع إلى ذلك كفرًا بعد إيمان ، ورجعية بعد تقدم ، وهمجية بعد ثقافة ، ولم يتفكروا في غربلة الأمور لتمييز صحيحها من فاسدها ، بل تطيروا بجملتها ، وتشاءموا برمتها ، واتهموها بأنها سبب الهزيمة التي حلت بهم ، والغبن الذي نزل عليهم ، وأخذوا يقتفون آثار الغالب في المزايا والخزايا ، حتى عمت بها البلايا ، مع أن في تقاليد بلادهم ما لو نظروها لتمسكوا به حتى ينقشع السحاب وينجلي الضباب عن جلاله وجماله ، ولكنهم مساكين : يخافون حيث لا مبرر للخوف ، وينكسرون عندما لا يوجد داع للانكسار .

إن المستعمرين والمبشرين : في الدرجة الأولى من التعصب لتقاليدهم ولغتهم وآدابهم وسياستهم على حساب المدنية والحضارة ، تحت ستار العلم والثقافة ، ليس منهم من لا يتعصب إلا خامل أو مرتزق .

أليس من التعصب أن ينزعوا من كل أمة لسانها ليلقنوها لسانهم الأوربي ؟

أليس من التعصب أن يدمروا كل أثر من آثار أفريقيا وآسيا لإخلاء الفراغ لآثار حضارتهم الأوربية ؟

أليس من التعصب أن يستعمروا بلاد غيرهم ، وأن يستغلوا خيرات الشعوب المستضعفة باسم الانتداب ، أو الوصاية أو الاستعمار ، أو بالتبشير المسيحي ، أو التقدم؟

تلك آثار العصبية الغربية في ديار المسلمين بآسيا وأفريقيا ، وليس في التعصب للدعوة إلى الله مضرة لقوم ولا لقبيل وإن كان في الدعوة تعصب ،

فإنما هو لله وللإنسانية ، فإن القرآن يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

(الحجرات:١٣) .

وفي الحديث يقول النبي ﷺ : « . . . ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

* * *